المعرفة البشرية المحصورة فى الحس والعقل .

أما طور ما وراءهما، نقصد الوحى، والمعرفة الآتية من قبله، فلا تتأثر بشىء، باعتبار مصدرها الإلهى، فهى معرفة فوق الزمان والمكان مؤثرة غير متأثرة .

أما منهج الأثر والتأثر عند نفر من المستشرقين فإنه يقوم على نزعة التعالى والترفع والعلمنة ، لاعتقادهم أن الحضارة اليونانية ـ وحضارتهم الأوربية إمتداد لها ـ هى أصل الحضارات، ومن ثم فهى المؤثرة دائماً، وكل شىء يرد إليها .

فلما رأى المستشرق أن حضارته الغربية ما هى إلا مردود للحضارة اليونانية، متأثرة بها كل التأثر ظن أن كل الحضارات كذلك لابد آخذة من اليونان، مردودة إلى حضارتهم . فى حين لو أنه قارن مقارنة موضوعية منصفة بين الفكر الإسلامى، والحضارة اليونانية لوجد أن ما بينهما كانت علاقة رفض أكثر منها علاقة قبول[١] . وخطأ المستشرق ـ أيضاً ـ ناتج عن تصور العلاقة بين الثقافات على أنها أحادية الطرف، الأولى معطية منتجة مبدعة وهى الثقافة الأوربية، والثانية مستقبلة ـ دائماً ـ مجدبة فارغة، خاوية وهى الثقافة غير الأوربية[٢] .

ولو أنصف المستشرق لعلم أن هيرودت وأفلاطون قد زارا مصر ، وتأثرا بالحضارة الفرعونية ، كما أن انطباعات فيثاغورث عن الشرق غير خافية فى فلسفته .

بعض المستشرقين يتجاهلون الثوابت التاريخية ، وينكرون الجميل ـ إذا صح التعبير ـ ويقابلون الحسنة بالسيئة ، من الثابت أن أوربا تأثرت بالحضارة الإسلامية تأثراً عظيماً ، يقول «جوستاف لوبون» : « كان الشرق يتمتع بحضارة زاهرة بفضل العرب[٣] ، وأما الغرب فكان غارقاً فى بحر من الهمجية، ولم يكن عند أولئك البرابرة ـ يقصد الحملات الصليبية على ديار الإسلام ـ ما يفيد الشرق ولم ينتفع الشرق منهم بشىء فى الحقيقة ، ولم يكن للحروب الصليبية عند أهل الشرق من النتائج سوى بذرها فى قلوبهم الازدراء للغربيين على مر الأجيال »[٤] .

التبادل إذن ليس أحادى ، بل العكس كانت الحضارة الإسلامية هى الأصل وهى النبع .

وتطبيقات هذه الفئة من المستشرقين لهذا المنهج على الإسلام وعلومه تكمل عملية الهدم التى مارسها المنهج التاريخى، والمنهج التحليلى وكذلك المنهج الإسقاطى.

---

١ ـ د حسن حنفى : السابق ص١٠٧ ـ ١٠٨ ٢ـ د حسن حنفى : السابق ص١٠٧ ـ ١٠٨ .
٣ ـ بل قل بفضل المسلمين . ٤ ـ جوستاف لوبون : حضارة العرب ص٣٣٤ .